حرة وغير تابعة لاحدى الدول بمقتضى المعاهدة الاستعمارية التى عقدت في برلين سنة ١٨٨٥ الا أن تنفيذ هذه الفكرة لا يفي بالغرض لضرورة مرور الخط من اراضى المانيا أو ولاية الكونجو على مسافة درجتين شمالا قبل الوصول الى اوغندا لكن مثل هذه الصعوبة لا تؤثر على همة هذه الامة القوية الارادة التى ذللت من الصعوبات ما عجز غيرها عنه

ولذلك لا نشك مطلقاً فى نجاح هذا المشروع الجسيم وإيصال اسكندرية بالكاب بالتلغراف والسكة الحديدية خصوصاً وقد وصل التلغراف من جهة السودان المصري الى الخرطوم وسيصل قريبا الى فشودة وسوبات كما كان قبل ثورة المهدي ومن يعش ير (باحث)

تراجم سياح العرب

(لأحد فضلاء مصر)

(١)

(ترجمة ابن سعيد المغربى البغدادى)

هو أبو الحسن نور الدين على بن موسى بن عبد الملك بن سعيد الغرناطي المصنف الاديب الرحالة الطرفة الأخباري العجيب الشأن فى التجول بالاقطار كانت ولادته بغرناطة فى رمضان سنة ٦١٠ هـ وقد أخذ العلم عن أعلام اشبيلية كأبى الحسن الدباج وابن عصفور وغيرهما وألف تآليف كثيرة منها «المرقصات والمطربات» و«المقتطف من أزاهر الطرف» و«الطالع السعيد فى تاريخ بني سعيد» و«المغرب فى حلى المغرب» و«المشرق فى حلى المشرق» وتعاطى نظم الشعر فى حد من الشبيبة يتعجب منه في مثله ودون كثيراً من نظمه في كتاب سماه «ملوك

الشعر ، ولما دخل القاهرة سائحاً لقي البها زهير وجمال الدين بن مطروح وغيرهما ولما وصل فى سياحته الي حلب لقي سلطانها وأنشده قصيدة أولها

جدلي بما لقي الخيال من الكري * لا بد للضيف الملم من القرى

وهى قصيدة طويلة وبعد أن آنس به السلطان سأله عن بلاده ومقصوده برحلته فأخبره انه جمع كتابا سماه المشرق وآخر سماه المغرب فقال له السلطان نعينك بما عندنا من الخزائن ونوصلك لما ليس عندنا بخزائن الموصل وبغداد وتصنف لنا ثم قال يداعبه اختر واحدة من ثلاث اما الضيافة التى ذكرتها أول شعرك واما جائزة القصيدة واما حق الاسم فأجابه على البديهة «المملوك ممن لا يختنق بعشر لقم لانه مغربي أكول فكيف بثلاث» فضحك السلطان وقال هذا مغربي ظريف ثم أتبعه من الدنانير والخلع والتواقيع بما لا يوصف

وبعد أن خرج من حلب تحول الى دمشق ثم الى الموصل وبغداد وذلك فى نحو سنة ٦٤٨ ومنها الى البصرة وبعد أن حج عاد الي المغرب وصنف رحلته التى سماها «النفحة المسكية فى الرحلة المكية»

وله وصية أوصى بها ولده عند افتراقه منه بمصر جاء فى أولها مانصه

أودعك الرحمن فى غربتك * مرتقبا رحماه فى أوبتك

وما اختياري كان طوع النوي * لكنني أجري على بغيتك

(ومنها)

وكل ما كابدته فى النوى * اياك أن يكسر من همتك

وكل مايفضي لعذر فلا * تجعله في الغربة من اربتك

ولا تجالس من فشا جهله * واقصد لمن يرغب فى صفتك

وامش الهوينا مظهرا عفة ... وابغ رضى الاعين عن هيئتك
ولا تجادل أبدا حاسداً ... فانه أدعى الى هيبتك
وافش التحيات الى أهلها ... ونبه الناس على رتبتك
وانطق بحيث العي مستقبح ... واصمت بحيث الخير فى سكتتك
ولج على رزقك من بابه ... واقصد له ماعشت فى بكرتك
ووفّ كلا حقه ولتكن ... تكسر عند الفخر من حدتك
وحيثما خيمت فاقصد الى ... صحبة من ترجوه فى نصرتك
ولتجعل العقل محكا وخذ ... كلا بما يظهر فى نقدتك

{ومنها}

كم من صديق مظهر نصحه ... وفكره وقف على عثرتك
ومنها واقنع اذا مالم تجد مطمعا ... واطمع اذا أنعشت من عترتك
ولا تضيع زمناً ممكناً ... تذكاره يذكى لظى حسرتك
والشر مهما اسطعت لا تأته ... فانه حر على مهجتك

وكأن صاحب الترجمة أحب أن يقدم أحسن نموذج على نثر المنظوم حيث عقب هذه النصائح الباهرة الشعرية والمواعظ النافعة الحكمية بهذه النصيحة النثرية اذ قال . يا بني الذى لا ناصح له مثلى ولا منصوح لى مثله قد قدمت لك فى هذا النظم ما ان أخطرته بخاطرك فى كل أوان رجوت لك حسن العاقبة ان شاء الله فاذا دعاك قلبك الى صحبة من أخذ بمجامع هواك فاجعل التكلف له سلما وهب في روض أخلاقه هبوب النسيم وحل بطرفه حلول الوسن وانزل بقلبه نزول المسرة حتى يتمكن لك وداده ويخلص فيك اعتقاده وطهر من الوقوع فيه لسانك وأغلق سمعك ولا تخض

في جانبه لحسود لك منه يريد ابعادك عنه لمنفعته أو حسود له يغار لتجمله بصحبتك ومع هذا فلا تغتر بطول صحبته ولا تمهد بدوام رقدته فقد ينبهه الزمان ويتغير منه القلب واللسان ولذا قيل اذا أحببت فأحبب هونا ما فني الممكن ان ينقلب الصديق عدوا والعدو صديقاً واحتذ بأمثلة من جرب واستمع الي ماخلد الماضون بعد جهدهم وتعبهم ولا تتكل على عقلك فان النظر فيما تعب فيه الناس طول أعمارهم وابتاعوه غاليا بتجاربهم يربحك ويقع عليك رخيصا واعلم انه ليس لكل أحد يتبسم ولا كل شخص يكلم واياك ان تعطى من نفسك الا بقدر فلا تعامل الدون بمعاملة الكفء ولا الكفء معاملة الاعلى

واياك أن يغرك صاحب واحد عن أن تذخر غيره للزمان وتطيعه في عداوة سواه ففي الممكن أن يتغير عليك فتطلب اعانة عليه أو استغناء عنه فلا تجد ذخيرة قدمتها وسلني فاني خبير طال والله ما صحبت الشخص أكثر عمري لا أعتمد على سواه ولا أعتد الا اياه منخدعا برأيه الى أن لا يحصل لى منه غير العض على البنان وقول لو كان ولو كان .ولا يحملنك أيضاً هذا القول أن تظنه في كل أحد ولتحرص جهدك على أن لا تصحب الارب حشمة ونعمة ومتى فارقت أحدا فعلي حسنى في القول والفعل فانك لا تدري هل أنت راجع اليه واياك أن تثبت على صحبة أحد قبل أن تطيل اختباره فيحكى أن ابن المقفع خطب من الخليل صحبته فجاوبه « ان الصحبة رق ولا أضع رقي في يديك حتى أعرف كيف ملكتنى » ولا يحملك الحياء على السكوت عما يضرك أن لا تبينه واجعل لكل أمر أخذت فيه غاية تجعلها نهاية لك وآكد ما أوصيك به أن تطرح الافكار اذ أنها تجلب الهموم ولا ترد عليك الفائت ولقد شاهدت بغرناطة شخصا من أعجب ما رأيته فيه انه يتنكد في الشدة ولا يتعلل بأن

يكون بعدها فرج ويتنكد في الرخاء خوفا من أن لا يدوم اه

وكلها وصايا من هذا القبيل جديرة بأن يضعها كل أحد نصب عينيه

وتوفي ابن سعيد هذا بتونس في حدود سنة ٦٨٥ هجرية

ولما قدم مصر عرف أهل العلم بها قدره ورفعوا من شأنه لدى الامراء وصحبوه في حله وترحاله. وله جملة في وصف الطريق بين القاهرة ومصر الفسطاط نقدمها للقراء شاهدا عدلا على ضبط حكاياته وصدق مروياته قال

ولما استقررت بالقاهرة تشوفت الي معاينة الفسطاط فسار معي أحد أصحاب العزمة فرأيت عند باب زويلة من الحمير المعدة لركوب من يسير الى الفسطاط جملة عظيمة لا عهد لي بمثلها في بلد فركب منها حمارا وأشار الى أن اركب حماراً آخر فأنفت من ذلك جريا على عادة ماخلقته في بلاد المغرب فأعلمني أنه غير معيب على أعيان مصر وعاينت الفقهاء وأصحاب البزة والسادة يركبونها فركبت وعند ما استويت راكبا أشار المكاري على الحمار فطار بي وأثار من الغبار الاسود ما أعمى عيني ودنس ثيابي وعاينت ما كرهته ولقلة معرفتي بركوب الحمار وشدة عدوه على قانون لم أعهده وقلة رفق المكاري وقفت في تلك الظلمة المثارة من ذلك العجاج فقلت

لقيت بمصر أشد البوار ركوب الحمار وكل الغبار

وخلفي مكاري يفوق الرياح لا يعرف الرفق بهمي استطار

أناديه مهلا فلا يرعوى الى أن سجدت سجود العثار

وقد مد فوق رواق الثرى وألحد فيه ضياء النهار

فدفعت الى المكاري أجرته وقلت له احسانك إلي أن تتركني أمشي على رجلي ومشيت الى أن بلغتها وقدرت الطريق بين القاهرة والفسطاط

وحققت بعد ذلك نحو الميلين ولما أقبلت على الفسطاط أدبرت عنى المسرة وتأملت أسوارا مثلمة سوداء وآفاقا مغبرة ودخلت من بابها وهو دون غلق مفض الى خراب معمور بمبان سيئة الوضع غير مستقيمة الشوارع قد بنيت من الطوب الادكن والقصب والنخيل طبقة فوق طبقة وحول أبوابها من التراب الاسود والازبال مايقبض نفس النظيف ويغض طرف الظريف فسرت فى أسواقها الضيقة فقاسيت من ازدحام الناس فيها بحوائج السوق والروايا التى على الجمال مالا يفى به الا مشاهدته ومقاساته الى أن انتهيت الى المسجد الجامع فعاينت من ضيق الاسواق التي حوله ماذكرت به ضده في جامع اشبيليه وجامع مراكش ثم دخلت اليه فعاينت جامعا كبيرا قديم البناء غير مزخرف ولا محتفل به فى حصره التى تدور مع بعض حيطانه وتبسط فيه وأبصرت العامة رجالا ونساء قد جعلوه معبرا بوطء أقدامهم يجوزون فيه من باب الى باب ليقرب عليهم الطريق والباعة يبيعون فيه أصناف المكسرات والكعك وما جرى مجرى ذلك والناس يأكلون منه في أمكنة عديدة غير محتشمين لجرى العادة عندهم بذلك وعدة صبيان يطوفون بأوانى ماء على من يأكل قد جعلوا مايحصل لهم رزقا وفضلات مآكلهم مطروحة فى صحن الجامع وفي زواياه والعنكبوت قد عظم نسجه فى السقوف والاركان والحيطان والصبيان يلعبون فى صحنه وحيطانه مكتوبة بالفحم والحمرة بخطوط قبيحة مختلفة من كتب فقراء العامة الا أن مع هذا كله على الجامع المذكور من الرونق وحسن القبول وانبساط النفس مالا تجده فى جامع اشبيلية مع زخرفته والبستان الذي فى صحنه ولقد تأملت ماوجدت فيه من الارتياح والانس دون منظر يوجب ذلك فعلمت أنه سر مودع من وقوف

الصحابة رضوان الله عليهم في ساحته عند بنائه واستحسنت ما أبصرت فيه من حلق المتصدرين لاقراء القرآن والفقه والنحو في عدة أماكن وسألت عن موارد أرزاقهم فأخبرت أنها من فروض الزكاة وما أشبه ذلك ثم أخبرت أن اقتضاءها يصعب الا بالجاه والتعب ثم انفصلنا من هنالك الي ساحل النيل فرأيت ساحلا كدر التربة غير نظيف ولا متسع الساحة ولا مستقيم الاستطالة ولا عليه سور أبيض الا انه مع ذلك كثير العمارة بالمراكب وأصناف الارزاق التي تصل من جميع أقطار الارض والنيل ولئن قلت اني لم أبصر على نهر ما أبصرته على ذلك الساحل فانى أقول حقاً والنيل هنالك ضيق لكون الجزيرة التي بني فيها سلطان الديار المصرية الآن قلعته قد توسطت الماء ومالت الى جهة الفسطاط وبحسن سورها المبيض الشامخ حسن منظر الفرجة في ذلك الساحل اه

وقد عثرت على كتيب خاص بدولة بني طولون طبعه في مدينة (ليبسج) الدكتور فوللرس ناظر الكتبخانة الخديوية وهو من تآليف ابن سعيد وجده في سنة ١٨٨٩ ضمن ووق دشت في احدي قاعات جامع المؤيد وقد عمل له مقدمة باللغة الالمانية جاء فيها مانصه ان لابن سعيد مؤلفات شتى منها

(ا) في التاريخ

١ المغرب في حلي المغرب وهو ١٥ مجلدا منها الستة الاولى خاصة بمصر ومن السابع الى العاشر خاصة ببلاد البربر ومن العاشر الى الخامس عشر خاصة بتاريخ العرب في اسبانيا

٢ المشرق في حلي المشرق قال صاحب كشف الظنون انه يتركب من ١٥٠ سفرا وقال غيره بل من ٦٠ فقط

٣ كتاب في التواريخ

٤ لذة الاحلام فى تاريخ أمم الاعجام

٥ الطالع السعيد فى تاريخ بني سعيد وهو تاريخ أهله وذويه

٦ كنوز المطالب فى آل أبى طالب

٧ البشرى فى تاريخ عرب الجاهلية ومنه نسخة بخط يده في مدينة (تونجن) من مدن المانيا

(ب) فى الجغرافيا والسياحات

١ فضاء الارض توجد منه نسخة بمكتبة اكسفورد وأخرى بمكتبة بطرسبرج

٢ وصف الكون توجد منه نسخة بمكتبة اكسفورد بانكلتره

٣ النفحة المسكية فى السياحة المكية

٤ عدة المستنجز وغفلة المستوفز ويشتمل على سياحته الثانية ببلاد المشرق

(ج) فى الشعر والادب

١ المرقصات والمطربات

٢ المحلي بالاشعار

٣ المقتطف من أزهار الطرف

٤ المرزمه

٥ غرة الطالعة فى أخبار شعراء المائة السابعة

٦ ريحانة الادب فى المحاضرات

٧ نتائج القرائح فى مختار المراثى والمدائح

٨ ملوك الشعر

٩ الغراميات

١٠ حل الرسائل

وبعد أن رتب الدكتور فوللرس تلك الاوراق استخرج منها

أولا تاريخ عمال مصر قبل ابن طولون وعدد ورقه ٦٩

ثانيا » الدولة الطولونية وعدد » ٨٤

ثالثا » » الاخشيديه وعدد » ٨٥

رابعا » » الفاطميه » » ٣٩

خامسا » » الايوبية والحروب الصليبية » » ٦٢

سادسا رسالة على مدينة عين شمس وتاريخ سيدنا يوسف (عليه السلام)

وملوك مصر في الزمن القديم كالريان ابن الوليد وعدد ورقها ١٣

سابعا رسالة عن الفسطاط والقاهرة وعدد » ٢٦

ثامنا شعراء مصر ٦ صحايف

تاسعا تراجم لبعض مشاهير المصريين » ورقه ١٥٢

وقد قال الدكتور فوللرس ان كتاب المسهب فى غرائب المغرب ابتدأ بتأليفه فى نحو سنة ٥٣٠ عبد الله بن ابراهيم بن الحجرى واستمر من بعده على الكتابة فيه عبد الملك وهو الجد الاول لعلى بن سعيد ومن بعد عبد الملك ولداه أبو جعفر أحمد ومحمد وبعدهما موسي بن محمد وهو أبو على وأتمه ابن سعيد هذا وسماه كتاب المغرب واستند في ذلك على ماورد في عنوان الرسالة الخاصة بمدينة عين شمس وهو « السفر الثالث من كتاب المغرب في حلى المغرب الذي صنفه بالمواريثة في مائة وخمس عشرة سنة ستة من أهل الاعتناء وهم

عبد الله بن ابراهيم بن الحجري ثم عبد الملك ثم ولداه أبو جعفر أحمد ومحمد وموسى بن محمد كتبه بخطه للخزانة الجليلة المعمورة بطول بقاء السيد الصاحب الكبير المحسن المنعم الامام العالم كمال الدين ابن أبي جرادة العقيلي أحيا الله رسوم الفضائل ببقائه وأبقي رونقها وبهجتها بدوام سعده وارتقائه. متفيء ظله المنتعش باحسانه، علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد بن خلف بن سعيد بن محمد بن عبد الله بن سعد بن عثمان بن محمد بن عبد الله بن سعد العنسي الاندلسي »

وورد في ظهر الصحيفة الاولي بعد اسم الكتاب مايأتي .فهذا الكتاب السادس من الكتب التي يشتمل عليها كتاب النشوات الخمرية في حلي المملكة الوسطى من الممالك المصرية وهو الاول من كتب الكور المشرقية عن النيل وسميته «كتاب لذة النفس في حلي كورة عين شمس» يشتمل هذا الكتاب على خمسة كتب الاول كتاب منية النفس في حلي مدينة عين شمس «الثاني» كتاب الاغتباط في حلي مدينة الفسطاط «الثالث» كتاب النجوم الزاهرة في حلي مدينة القاهرة «الرابع» كتاب رشف القبل في حلي قلعة الجبل «الخامس» النفحة الحاجرية في حلي الجزيرة الصالحية وفي آخر ورقة من السفر السادس هذه العبارة «كمل السادس من كتاب المغرب في حلي المغرب وبتمامه كمل» كتاب الاكليل في حلي بلاد النيل» الذي يشتمل عليه فلك الزهرة يتلوه في السابع الفلك الثاني من الافلاك المغربية وهو فلك عطارد الذي يشتمل عليه (كتاب نفحات العنبر في حلي بلاد البربر) . كتبه بخطه علي بن سعيد مكمله برسم الخزانة الصاحبية العلية الكمالية العقيلية عمرها الله بحضرة حلب في العشر الاخر من جمادي الآخرة سنة ست وأربعين وستمائة» اهـ